University of Zawia - Rewaq Alhkma Journal (UZRAJ)
Volume 9, Issue 1, (2025), pp. 46-62, ISSN:3079-0581

From Enlightenment to the Philosophy of Enlightenment: A dialectical reading of the formation of the term and its dimensions.

Naji alnaaji

Department of Philosophy. Faculty of Education Naser. University of Zawia, Zawia – Libya.

***Corresponding author email: n.alnaaji@zu.edu.ly**

Received:25 /05/2025 / Accepted:10/06/2025 Available online:30/6/2025.*DOI:10.26629/uzraj .2025*.04

ABSTRACT

Enlightenment is a moment of brilliance, through which the mind is able to achieve achievement for its own benefit, and for others to benefit from it.
So, enlightenment began and existed, and it was not a philosophy, and this is our bottom line.
Enlightenment is the opposite of darkness, backwardness, and ignorance. Rather, it is a synonym for awareness and progress, moreover, enlightenment is founded on the concept of light, which has a close relationship with the mind and its tools. We consider the term progress and its process in the development of human life to be one of the outcomes of enlightenment.
The term progress and its process in the development of human life is considered to be one of the outcomes of enlightenment. The enlightenment was not against religions, nor will it be. For individual and sectarian paths, they were not, and will not be, a criterion for the purpose of rational enlightenment, thus, Flankait is not holding us back, nor enlightenment explaining what is enlightenment. philosophers are our only and absolute criterion for

Keywords: Enlightenment - Enlightenment Philosophy - Age of Enlightenment - Enlightenment Ideas

"Articles published in *Univ Zawia Rewaq Alhkma* J are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License."

من التنوير إلى فلسفة التنوير" قراءة جدلية في تشكل المصطلح وأبعاده"

ناجي النعاجي

قسم الفلسفة، كلية التربية ناصر، جامعة الزاوية، الزاوية – ليبيا

البريد الإلكتروني:n.alnaaji@zu.edu.ly

تاريخ الاستلام: 2025/05/25م **تاريخ القبول: 2025/06/10م** **تاريخ النشر: 2025/06/30م**

ملخَّص :

التنوير لحظة إشراق يتمكن بها العقل من تحقيق إنجاز لصالح شخصه ، وينتفع به الأخرون ، إذاً التنوير بدأ وكان ، ولم يكن فلسفة .. وهذا بيت القصيد عندنا . التنوير نقيض الظلام والتخلف والجهل ، بل هو رديف الوعي والتقدم ، فالتنوير يتأسس على مفهوم النور ، والذي يرتبط بعلاقة وثيقة الصلة بالعقل وأدواته ، ونعد مصطلح التقدم وصيرورته في تطور الحياة الإنسانية هو من مخرجات التنوير. ولم يكن التنوير ضد للأديان ، ولن يكون ، أما المسارات الفردية ، والمذهبية ، لم تكن ، ولن تكون معيار لمقصد التنوير العقلاني . فلا كانط يرتهننا ، ولا فلاسفة الأنوار ، هم معيارنا الوحيد والمطلق في بيان ما هو التنوير

كلمات مفتاحية: التنوير – فلسفة التنوير – عصر التنوير– أفكار التنوير.

مقدمة:

إن الظواهر والأحداث في تاريخ الإنسان بدأت في صورة موقف ، أو حدث ، وهذا الحدث أو الموقف كانت صيرورته إنتاج لحظة (يقظة) ، ومن ثم التعبير عن تلك اللحظة بأسلوب قد تمت صياغته في مفهوم ، أو توصيفه بمصطلح بذاته ، أو ترجمته في فكرة ، فكانت تلك الفكرة وليدة ظروفها التاريخية والموضوعية ، وبالتالي فكل فكرة تركت أثر وأثرت في مسيرة الحياة الإنسانية سلباً، أو إيجاباً ، تغيرت تبعاً لها الحياة والأفكار وتطورت الإنسانية وازدهرت ، لتصبح الإنسانية ليس كما كانت ، فالأفكار في جدلية مستمرة لا تتوقف إلى الأزل ، وصراع الأفكار، على شاكلة صراع الحضارات ، وصراع الحضارات انتهى إلى زوال حضارات خمدت جذوة أفكارها ، وأضحت تابعة بعد أن كانت متبوعة.

إشكالية البحث:

تنطلق الدراسة من رؤية تاريخية عن ما هو التنوير وما حقيقته ؟ ، فهل هو مجرد مذهب لتيار فلسفي بذاته أم أنه فكرة تشكلت نتاجاً لنضوج العقل ثم أضحت بعد ذلك مسار ونهج تطور فكانت الحضارات هي نتاجه ؟ .

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الآتي:.

1. التأكيد على أن التنوير يعد مسار فكر وحضارة ، وأن هناك فارق كبير بين القول بمشروعية فكر التنوير ، وبين تطرف فلاسفة التنوير .
2. بيان أن التنوير لا يتعارض مع الدين، وإنما الدين ذاته تنوير .
3. التأكيد على أن ثمة فرق كبير بين ما يؤمن به المثقفين ، وما يسوق له الأيديولوجيين.

كما يهدف البحث للإجابة على السؤال الرئيسي التالي: ما هو التنوير؟ وماهي خصائصه ؟ وما العلاقة التي تربطه بالعقل والدين ؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في تبصير العوام ، وتبسيط المفهوم ، فليس التنوير فكر متطرف يتجاوز المعقول ، ويسفه القيم والتراث ، وإنما هو تعبير عن فضاءات .

منهجية البحث:

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التحليلي المقارن ، لأجل بلوغ الهدف الذي ترسمه ، بأن التنوير ليس حكراً على الفلسفة ، بل هو مصطلح علمي يتجاوز مفهومه الضيق في اطار الفلسفة .

وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى النقاط التالية:.

أولاً: السياق التاريخي لفاعلية التنوير:

التنوير سيل من الأفكار شكّل جوهر التقدم في مسيرة الحياة الإنسانية ، وهذا هو المنطوق العام الذي تؤكده الكثير من المصادر التاريخية ، ومع كل ذلك فقد نجد بعض الآراء المتعصبة هنا أو هناك ، ولكنها ليست محل نظر عند الكثير من أهل الاختصاص، أما فيما يتصل بالتباين في القراءات التي تحدد مفهوم وتاريخ المصطلح ، والتي ساد إلى حد يومنا هذا، سواء على صعيد الدراسات التاريخية، أو الكتابات العقائدية، أو ما تقدمه بعض الأطروحات الفلسفية ، وما تجتره أقلام المثقفين في كتاباتهم ومقالاتهم ، فذلك مرجعه إلى مستوى الفهم والإحاطة بماهية التنوير، وعمق دلالته، وتاريخ حضور هذا المصطلح في الذاكرة الإنسانية، والترجمة اللغوية لهذا المصطلح وفق المعنى والاشتقاق الإيجابي لدلالة التنوير وقدرته على تقبل التأويلات الاصطلاحية . وبالتالي فإن التنوير كإرث معرفي ارتبط بالإنسان وقدرته على تنمية إمكانياته المادية والروحية ، وتشكيل منظومة من العلاقات ، ورسم صورة للحياة تتقاسم فيها الأدوار، وإحداث حالة من التعايش بين بني الإنسان ، والاستئناس بالحيوانات وتطويعها

لصالح الإنسان ، وإبداع فنون للحماية ، وتشريعات لضمان الحقوق ، والالتزام بالواجبات ، فالتنوير مسيرة بدأت قبل الحضارة اليونانية ووريثتها الحضارة الأوروبية ، سواء كان ذلك في حضارات الشرق القديم (حنفي ، 2001)، أو ما سبقها من تجمعات إنسانية أبدعت في تطوير مستوى حياتها وأفكارها اتجاه الطبيعة، والقدرة على التعايش معها . أما فيما يتصل بالأطروحة التي تذهب إلى القول بأن التنوير هو فكر أوروبي الأصول ، ويوناني الجذور ، فذلك رأي ليس له (منطق ولا حقيقة) بحيث يمتلك صفة الاطلاق في التصنيف، وإنما يصدق هذا القول عند الحديث عن صياغة التعريف . هذا في منظوره العام ، أما فيما يتصل بالفكر العربي ، فهو على ما يبدو قد تأثر في مراحله المختلفة سواء على المستوى الفكري ، أو في التنظير الفلسفي الحديث ، أو المعاصر ، وبالتالي فقد تأثر بأطروحة التنوير الأوروبي ، محاولاً صياغتها في قالب لا يتصادم بشكل جوهري مع الإرث الفكري المتمثل في التراث في أقدس معانيه ، وفي المقابل فإنه لم يتبلور في مشروع واضح المعالم، وقوي البنيان، الأمر الذي أدى إلى عدم نيله للتأييد على جميع الأصعدة، لذلك فإن أداة التنوير ورمزه البنّاء هو العقل المتفاعل مع الأشياء الواقعة في محيط إدراكه، وبوسائله المختلفة، فهو يتعقل ويحيط ويستنبط الظواهر التنويرية والإنسانية، ويقدر الأحكام التي تتناسب مع المواقف والقضايا، ويصدر الأحكام دون الخضوع لأي سلطان، إلا سلطان العقل ذاته ، ولذا فالتنوير كان ولا يزال هو النور الذي يبدد كل ظلام يحول دون إدراك الإنسان لحقائق الأشياء، وهو السبيل إلى معرفة كل مجهول. ولعلنا فيما سبق قد أشرنا إلى إن التنوير ظاهرة بدأت مسيرتها في سياق رحلة الإنسان منذ بداياته الأولى التي كان حياته فيها عالة على الطبيعة، من خلال مكتشفاته الأولية للقدرة على جعل النار وسيلة للتدفئة وللطهي وللاسترشاد ، وما تبعها من اكتشافات، فالمصطلح لم يتبلور ويصبح أطروحة ومشروع فكري ونهضوي قوي الدعائم إلا مع ظهور الحضارات الشرقية القديمة من الفرعونية في مصر (أبو الخير، 2008 ، 9)، والكونفوشيوسية في الصين والبوذية الهندية (كلارك ،2007، 65) ووصولاً لليونانية (عنان، 2008 ،49) ولا نتجاهل حضارات بابل وسومر وما أبدعته من تراث معماري وتراث فكري ونظم قانونية ، وبالتالي فكلما تقدم ركب الحضارة الإنسانية واقترب من عصرنا الحاضر، بدأ مفهوم التنوير يأخذ معنى ودلالة أكثر حيويةً وإشعاعاً وفاعليةً ، وبالتالي يصبح المفهوم ذا حضور بدلالةٍ أكثر موضوعية وعلمية ، وتبرز قيمة التنوير وإشعاع الأنوار في حياة المجتمعات الإنسانية بمعناها الشمولي، وتتشكل أفكار فلسفة التنوير، بذلك يجوز لنا القول بأن التنوير كمصطلح تطور في معناه ، عما كان في بدايات الحضارات الإنسانية ومن بعدها حضارات الشرق القديم، ليأخذ دلالة أكثر وضوح وعلمية عند اليونان ، وصار عند الأوروبيين أكثر دقة وموضوعية عما سبقهم ، بل أضحى فلسفة لها مفهومها وروادها وأتباعها، وكل هذا وذاك ، هو ما نصطلح عليه بظاهرة تطور المفهوم . إذاً لا نكاد نجد حضارة إنسانية تخلو من رؤية تنويرية، أو مشروع تنويري سواءً كان منبعه أخلاقي أو ديني أو اجتماعي أو حتى اقتصادي، ففي حين نجده عند الصين الكونفوشيوسية قد أخذ بعداً أخلاقياً ، فهو عند الهنود البوذية يتخذ دلالة دينية ، بينما

نجده عند اليونان قد كان أكثر ثراء وموضوعية عندما اتخذ منحى أكثر حيوية فتميز بالعقلانية (عنان، 2008 ،49) ، في حين نرى أن المسلمين قد أصبغوه بالطابع الديني التوحيدي، وينتهي عند الأوروبيين بشكل مغرق في العقلانية العلمية ، وبالتالي كانت فاتحة عصر الإبداع والاختراع غير المتناهي ، لما اتسمت به هذه المرحلة من إنجازات حيرت الإنسان وجعلته مأخوذاً ومتعلقاً ومقلداً لهذه المرحلة .

ثانياً : قراءة في اشتقاق مصطلح التنوير:

1- مفهوم التنوير في اللغة:

يستمد لفظ التنوير في اللغة العربية واللاتينية من لفظ النور والذي منه أشتق التنوير والأنوار، وأن الأصل في كلمة (النور) هو نور الإيمان، غير أنه انسحب على المعنى الفكري والفلسفي، ليصبح ذو (معنيين الأول : ديني يعني (نور الله)، والثاني: فلسفي يعني نور العقل (بغورة، 2009 ، 72). ونجد أن البوذية تشترك في تأكيد المعنى الديني لهذا المصطلح من خلال اللحظة التي وصل إليها بوذا في تجلياته (الحفني، 1999، 332)، والتي يصطلحون عليها بمصطلح لحظة (الاستنارة). ولذا فإننا في اللغة العربية نجد أنه وكما ورد في لسان العرب لابن منظور أن "التنوير وقت إسفار الصبح ، يقال نوَّر الصبح تنويراً ، والتنوير: الإنارة ، والتنوير: الأسفار" (ابن منظور، 1995، 321) . أما في اللغة الانجليزية : وبحسب موسوعة المورد (دائرة المعارف إنكليزية عربية) فإن دلالة لفظ التنوير ((Enlightenment فهو يعبر عن حركة فكرية ظهرت في أوروبا في القرن الثامن عشر، شكت في المعتقدات الموروثة، وبخاصة المعتقدات الدينية، وأكدت على التفكير العقلاني والطريقة العلمية، جاعلة أول مرتكزاتها الإيمان بأن الجنس البشري يستطيع عن طريق العقل الاهتداء إلى المعرفة والفوز بالسعادة في آن معاً (البعلبكي،1981، 62). وفي هذا المقام فقد ناقش الدكتور حسين مؤنس في كتابه: (الحضارة) موضوع دلالة المصطلح في مجموعة من اللغات الأجنبية باعتبار التباين بين اللغات يؤدي إلى التفاوت في دقة المصطلح ، وقد استوحى في هذا المقام رؤيته استناداً على أساس الاشتقاقات في اللغات الأوروبية المختلفة (مؤنس،1998، 243). هذا على صعيد اللغات ، في حين أن الكتب المقدسة (كالإنجيل والقرآن): كذلك أشارت إلى ما يوافق في الاشتقاق اللغوي لمصطلح التنوير ، من خلال ارتباطه بدعوة المؤمنين إلى السير في طريق النور الذي جاء ببشائره الأنبياء والمرسلين ، وبالتالي فقد ثبت في الكتاب المقدس(الانجيل _ إنجيل يوحنا) ما يدل دلالة واضحة لمعنى التنوير، "وعاد يسوع إلى مخاطبتهم ، فقال لهم : أنا نور العالم ، من يتبعني لا يمشي في الظلام ، بل يكون له نور الحياة"(الكتاب المقدس ، 139). كذلك نجد أن القرآن الكريم قد أشار إلى لفظ (النور) الذي هو مصدر اشتقاق التنوير أكثر من ثلاثين مرة، ومنها قوله تعالى: "أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه (الزمر،22).

مما سبق يمكن القول بأن التراث الإنساني في مجموعه ، الشرقي منه والغربي القديم والحديث وكذلك المعاصر لا يختلف على أن (النور) هو المصدر الذي لا خلاف عليه في اشتقاق مصطلح التنوير، وإن تعددت مسمياته من فكر التنوير إلى عصر التنوير، وفلسفة التنوير وفلسفة الأنوار ، وعليه وإن تباينت الاتجاهات، فإن الغايات تلتقي في التنوير وإحداث نقلة تقدمية للإنسان في شتى مناحي الحياة . وقد يكون منبع التنوير الدين بمختلف أشكاله ، وبتنوع مسمياته ، وقد يكون العقل منبعه ، وإن تعددت منطلقاته واختلفت عصوره ، وتباينت مذاهبه فإنها جميعاً تدأب إلى الرقي بعالم الإنسان وحاجاته، فمصطلح التنوير تطور كما تتطور المصطلحات والمفاهيم الأخرى ، فهو عبر تاريخه الطويل اتخذ أكثر من وجهة فمن الأسطورة (هوركهايمر وأخرون،2003 ،91)، و(النور) في العصور القديمة إلى الدين(هازار،2004 ، 47) ، ونور الإيمان، حتى أصبح اليوم يعرف بنور العقل الذي هو نور العلم (تزفيتان،2007 ،111) في عصر الحضارات اليونانية والأوروبية من بعدها.

2- التنوير في الاصطلاح : لقد تعددت التعريفات الاصطلاحية للتنوير بما لا يسعنا لعرضها كلها ، ولذا سنذكر بعض من تلك التعريفات على سبيل المثال ، ومالم نذكره فقد تضمن مفهومه ومعناه لدى ما سنعرضه ، لعلنا سنقدم دليل أكسفورد للفلسفة في عرض مفهوم التنوير باعتباره لا يلتزم برؤية محدده ويتجاوز في جوهره الزمان والمكان.

أ ـ ثبت في دليل أكسفورد للفلسفة تشخيص لماهية التنوير، واعتباره مصطلح لا يمكن قراءته إلا من خلال كونه يحتمل عدة إحاطات، نذكر منها، القول بأنه هو تعريف بالتنوير الأوروبي، والذي تشير كلمة التنوير ومرادفاتها في اللغات الأوروبية إلى حركة فكرية بدأت في إنجلترا في القرن السابع عشر، وتطورت في فرنسا وألمانيا في القرن الثامن عشر، ويجب الإشارة إلى أن أغلب المجتمعات الأوروبية عملياً، تأثرت بهذا النمط من التفكير، وأضحى التنوير ديدنها (تدهوندرتش، 2003، 936). وبقراءة معمقة لهذا التعريف ، يمكن القول بأن التعريف جاء كتوصيف لما شهدته أوروبا، اعتماداً على الرواية التاريخية ، في مرحلة كانت أوروبا تشهد متغيرات بوتيرة متسارعة ، وبالتالي فهو تعريف مبني على التطور في أنماط الحياة ، وبشكل أعمق ما حدث حصراً في إنجلترا في القرن السابع عشر ، بالإضافة إلى ما برز من تغيرات جوهرية في واقع الحياة في فرنسا إبان الثورة الفرنسية المعروفة 1779م وكذا من بدأ في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها من دول أوروبا، وهذه الأطروحة نلاحظ بأن كثيراً ما تكررت لدى أغلب الموسوعيين الذين تعرضوا لموضوع التنوير، دون بيان التحليل الفلسفي لحقيقة مفهوم التنوير. وإنني أميل إلى القول الذي ذهب إليه دليل أكسفورد ، باعتباره تحليل أكثر موضوعية ، ورؤية تأسست بناء على ما تسمى به التعريف ، والذي اعتبر التنوير بمعنى ما (لا تاريخي) "فهو يقر أن كل الناس في كل الأزمنة وكل الأمكنة متماثلون من حيث الطبيعة ، والفروق التي ظهرت عبر التاريخ فروق زائفة وبالمقدور الخلاص منها" (تدهوندرتش،963) وهذا القول نجد أثره في الصروح العلمية والفكرية لدى

اليونان (عنان،2008 ،49) وكذلك في الحكمة الأخلاقية لدى الصينيين القدماء. فلكل حضارة أنوارها ، وتنويرها ، ولعلها تفاوت في الثقافة والمنجزات التنويرية.

ب- يُعد موسى مندلسون 1927م ، الفيلسوف الألماني من الأصول اليهودية هو من أوائل الذين نبروا للكتابة في هذا الموضوع من خلال مقال كتبه لصحيفة (بريلينتش موناتشرفت) والتي تصدر باللغة الألمانية للإجابة عن السؤال (ما التنوير؟) وقد ورد جواب مندلسون فيه عن التنوير بقوله: "إن كلاً من المعرفة والثقافة والتنوير تعديل للحياة الاجتماعية، ويندرج تحت المعرفة كل من الثقافة والتنوير. وتهتم الثقافة بالجانب العملي بينما يهتم التنوير أكثر بالجانب النظري. أي يهتم بالمعرفة العقلانية والموضوعية وقدرة الذات على التفكير في الأشياء الموجودة في الحياة الإنسانية تبعاً لأهميتها وتأثيرها في تحقيق حياة الإنسان"(الحيدري،2009) ومندلسون تعرض للمصطلح من واقع الحياة بصفة عامة ، لا من الزاوية الفلسفية ، أو بقول أبعد عن السياق التأويلي ، والقراءة النقدية ، لذا لم يحظ باهتمام بالغ كما سيحدث مع كانط فيما بعد.

ج- إيمانويل كانط 1724م ذلك الفيلسوف الألماني الذي اقترن مصطلح التنوير به وبفلسفته ، فقد ذهب في تحديده لمفهوم التنوير باعتبار أنها حالة "خروج الإنسان من قصوره الذي هو نفسه مسؤول عنه(قصور يعني عجزه عن استعمال عقله دون إشراف الغير)، لأن سببه يكمن ليس في عيب في العقل ، بل في الافتقار إلى القرار ، والشجاعة في استعماله دون إشراف الغير. تجرأ على عقلك أنت ذاك هو شعار الأنوار" (حرب، 1987 ،127).

د- أما هوركهايمر وأدورنو فقد كانت لهما أيضاً رؤيتهما فيما هو التنوير من خلال القول بأن مصطلح التنوير" يعبر وعلى مر الزمن، وبالمعنى العريض تعبيراً عن فكرة التقدم، وهدفه تحرير الإنسان من الخوف وجعله سيداً. أما الأرض التي تنورت كلياً، فهي أرض تشع بشكل يوحي بالانتصار " (هوركهايمر،22) ولعلنا نلاحظ بأن هذا التعريف يصور مفهوم التنوير كظاهرة تاريخية تتحقق ، إذا توفرت لها الشروط ، بحيث يصبح الشعب ، أو الدولة ، أو الحضارة تنويرية أو متنورة ، ومن هذه الشروط بروز ملامح التقدم وتحرر وانتفاء القهر والقسرية، وبالتالي فإن البلاد التي تظفر بالتنوير تنال كل ملامح الاستقرار والعدالة والمساواة، وتتسم بالحرية والديمقراطية، وتظفر بالعلم .

هـ - ولعل ما قدمه أحمد برقاوي 1952 في كتابه: (مقدمة في التنوير) هو رؤية متفردة ، وتعد مقالة أكثر موضوعيةً، وأدق فلسفياً، فقد ذهب برقاوي إلى القول: "اعلموا أن سؤال ما التنوير، لا معنى له إلا إذا انطلقنا من أن هناك ظلاماً يحتاج إلى تبديد ، إذ ذاك فإن الظلام هو الذي يحدد نوع التنوير المأمول ، وليس مصادفة إن تعددت أشكال التنوير بتعدد أشكال الظلام الذي واجهه (برقاوي، 1996، 13) . لقد انطلق برقاوي من الواقع ، وبالتالي قد جعل من مفهوم التنوير مفهوماً نسبياً، أي أنه لكل بيئة تنويرها ، ولكل مجتمع مفهوماً تنويرياً ، وفق الظروف والضرورة، فالتنوير في سياق الحكم التقديري ، بحيث هناك تفاوتاً مجتمعياً وحضارياً، فهناك من المجتمعات من هي متخلفة ، وبالتالي فإن التغير

والتطور الذي تحدثه تلك المجتمعات يعد نتاج تنوير ، وهو ذاته تنوير ، أليست الانتفاضات الشعبية في العالم العربي هي نتاج تنوير، وإن لم يتحقق منها المرجو ، وهو التحول الديمقراطي ، والنهضة الشاملة . وفي الإطار نفسه نجد أن الاختلاف في التعبير لا يعني الاختلاف الجذري في دلالة المصطلح ، فاستخدام مصطلح الأنوار، أو الاستنارة لا يؤدي إلى التقاطع أو التداخل ، بقدر ما يكون هو ذاته . فالأنوار بالجمع لا بالمفرد أنوار العقل والعقلانية، وهي ظاهرة عالمية حتى وإن لم يتسن لنا ملاحظة ذلك دائماً وفي كل مكان (بوريبر، 2008 ،6) هذا فيما يتصل بالدلالة اللغوية والاصطلاحية للتنوير والأنوار في اللغات الأوروبية ، التي كان أهلها المنبع الأساسي للأفكار المستنيرة .

بناءً على ما سبق بأن التنوير ظاهرة تتسم بالتاريخية وتتطبع بالفلسفة في كينونتها، وقد حققت للإنسانية إنجازات على مختلف الأصعدة، وما نعيشه اليوم هو إرثها، سواء على الصعيد المادي أو الفكري ، وقد عبر الكثير من المفكرين عن مفهوم التنوير اعتماداً على البعد التاريخي أو الفلسفي أو الديني ، وقليل منهم من كانت رؤيته ذات تصور يتطبع بالمنظور الثقافي ، وهو تصور يشوبه الكثير من القصور .

ثالثاً:. إشكاليات في ماهية المصطلح ودلالاته:

لعلنا نلاحظ بأنه كثيراً ما يتم تداول مصطلح التنوير عند أهل الاختصاص وعموم المثقفين، فمن خلال الاصطلاح على الظاهرة بمسميات أخرى غير مصطلح التنوير، نجد أن البعض يستخدم مصطلح (الاستنارة)، أو (عصر الاستنارة)، في حين نجد في أحيان أخرى أن هناك من يصطلح عليها (بعصر الأنوار)، وثمة آخرين يذهبون إلى وسمه (بفكر التنوير)، ولعلنا نجد أخرين يعبرون في كتاباتهم باستخدام مصطلح عصر التنوير، ويذهب جماعة آخرون إلى تداول المصطلح بتعبير أنه (فلسفة الأنوار) . وفي السياق اللغوي والفكري نجد أن هذه التعبيرات الاصطلاحية تختلف في مفهومها الدال على معنى التنوير. فنجد أن فكر التنوير ، يراد به فلاسفة محددين نشأوا في مرحلة معينة من مراحل تطور الفكر الغربي. وعندما يأتي المصطلح بلفظ عصر التنوير فإنه "يقصد به القرن الثامن عشر في تسلسل حقب الفكر الغربي(عمارة ، 15 ،2000) أما حين يطلق اللفظ بصيغة فلسفة الأنوار ، فهنا يمكن أن نقول بأن دلالة الفلسفة التي ظهرت في فرنسا متزامنة مع انتشار فلسفة ديكارت و منتسكيو ، وكذلك جان جاك روسو، باعتبار أن باريس كانت آنذاك عاصمة للأنوار (بوربير،6). أما التعبير على التنوير وفلسفته وعصره وفكره، من خلال استخدام البعض لفظ الاستنارة ، فكراً ، أو عصراً ، أو فلسفةً ، فهو كما ذهب حسين مؤنس لأنه أقرب إلى الفهم عند القارئ العربي لوضوح دلالتها العربية عن القارئ أو السامع . وبالتالي فإنني أميل إلى اعتبار لفظ الأنوار كمصطلح لوصف تلك المرحلة ، وهو كذلك ذاته المصطلح الذي اتخذه كانط عنواناً لمقاله (ما التنوير)، وكذلك لاحظنا نفس التوجه لدى فوكو عند حديثه عن التنوير، فهو لم يخرج عن ذات المقصد الذي قال به كانط على اعتبار أن الأنوار هي تعبير عن مظاهر وظواهر يمكن أن تتعدد وتتكرر، تعدد بحسب الحوادث،

وتتكرر بحسب الأمكنة والأزمنة . فالتنوير من الأنوار ، والأنوار هي طريق الاستنارة . وإجمالاً يمكن القول: يجب أن نفهم بأن التنوير لا يتقاطع ، أو يتناقض مع مفهوم الوعي أو اليقظة أو التقدم ، بل هو معيار الإصلاح والنهضة والرقي والتحديث ، بل هو أبعد من ذلك إنه التجديد والتنور .

رابعاً : بين التنوير وعصر التنوير:

لعل الكثير منا يخلط بين مصطلح التنوير ، وعصر التنوير ، وبالتالي تغيب عنه حقيقة أن ثمة فارق كبير ، وخلاف بعيد ، بين أن نتحدث باستخدام مصطلح التنوير، أو أن نستعمل مصطلح فكر التنوير، ولتوضيح ذلك يمكننا أن نتناول النقاط الآتية:.

1- إن التنوير لم يكن مرحلة مضت مع زمانها ومكانها ، ولا فترة سادة أنوارها ثم تلاشت وانتهت، ولا هو فلسفة ترتهن النور لها وبها ، وإنما هو عملية متواصلة من أعمال العقل للإجابة عن المستجدات والاشكاليات (بوربير ، 6) . فمصطلح التنوير هو تعبير عن ظاهرة بدأت مع تاريخ الثقافة عند الإنسان ، وتطور مع نضوج العقل ، والانتقال من مرحلة الاعتماد على المتوفر ، إلى مرحلة الإبداع وتطوير أشيائه ، واستكشاف المحيط وتحليل ظواهره ، وإعادة تشكيل الفهم ، من خلال الاعتماد على الادراك والتحليل والنقد ، بحيث نشكل حياتنا وفق ما يجب ، وليس وفق ما هو متوفر، أي أنه ليس عصراً بذاته ، ولا حكراً على أمة من الأمم ، وشعب من الشعوب ، وإنما نتاج نضوج عقلي ونقدي ، بدأ ولم ينته، فكل المنجزات الإنسانية هي نتاجه ، فالتنوير وبرؤية أدق هو مرحلة تساهم في تشكيل أي حضارة ، وتؤسس لأي نهضة ، ولذا فإن التنوير منتج كل مقومات ومكونات الحضارة الإنسانية ، لأن العقل حاضر في كل زمان ومكان.

2- إن عصر التنوير ، أو مرحلة عصر التنوير، إنما هو مرحلة تمثل سيل من الفكر، أو نهج فلسفي بذاته وسم هذا العصر أو الحقبة التاريخية ، إلى جانب إنه عصر التدفق غير المسبوق صناعياً ، وتقنياً ، ومعلوماتياً ، وعلى جميع الأصعدة ، ولعله على صعيد الحقوق والحريات أضحى أكثر فاعلية، لوجود منظرين ، ومؤسسات تتكفل برعاية تلك الحقوق والحريات، فهو عصر النضج في أوروبا انطلاقاً من مرحلة النهضة والثورة الثقافية ، فعصر التنوير أكثر ثراءً وسخاءً وتميزًا ، باعتباره مشروع ساد أغلب أوروبا واكتسح منظومة القيم والعقائد التي كانت تهيمن على الشعوب في تلك البلدان ، وفي ذلك العصر ، وهذا ما جعل لذلك العصر خصوصيته ، وتميزه ، وتفرده ، "شهد عصر التنوير تحولات كبرى في إنتاج وطرح الأفكار ...أنشئت مؤسسات اجتماعية جديدة ،اعتمدت على تبادل الأفكار وليس على ظهور أو تمييز الطبقة الاجتماعية أو الثقافية ،... نشأت في الوقت نفسه تجارة عالمية في السلع الاستهلاكية شملت المنتجات الثقافية المحمولة مثل الكتب والصحف ... أصبحت الثقافة بصورة متزايدة سلعة تجارية ، ... وأصبح من السهولة الحصول على المعلومات وحضور المساجلات.." (أوترام، 2008 ، 120)هذا هو عصر التنوير .

3- لقد بدأ عصر التنوير يفقد بريقه مع منتصف القرن الماضي، وأضحت أفكاره وفلسفاته تتهاوى بسبب تناقضها مع الواقع ، وبذلك نكست راياته ، وفقدت أوروبا مشروعية قيادته ، لقد تخلت أوروبا ، وأمريكا والدول العظمى عن التزاماتها ، وانتهت إلى دول تنتهك الحقوق ، ولا تحترم الحريات ، إنما تتستر بتلك الحقوق والحريات ، كي تحيل حياة الكثير من الشعوب والأمم إلى حياة مظلمة ، فنكلت بتلك الشعوب ، وسرقت ثرواتها ، فخيم عليها ظلام الجهل والتخلف ، والفقر ، وأضحت دول تابعة وخانعة ، فالحقبة الاستعمارية كانت أكبر دليل على إجهاض فكر التنوير ، لقد انتهى العقل إلى اللامعقول، وانتهى الحال بالعقل ، ليصبح أكثر طغياناً (ليسنج ، 2006، 112،113) لكن ذلك لا يعني بأن كل المنظرين لفكر التنوير هم ذاتهم انسلخوا عن مبادئهم ، إنما ثمة ثلة من أولئك الذين كانوا دعاة للإصلاح والتنوير في بلدانهم ، هم ذاتهم من روج لذرائع تبرر للنظام الرسمي في تلك الدول لممارسة سلوك استعماري بغيض فمنهم من تبنى الرؤية التلفيقية التي أخضعت مفاهيم فكر التنوير إلى عملية تلميع صورة الاستعمار تحت مفاهيم وتفسيرات خالية من المضمون ، فهذا جول فيري (1832، 1893) الزعيم السياسي الفرنسي الذي يعد أحد داعمي التوسع الاستعماري الفرنسي في أفريقيا، يذهب إلى الادعاء بأن الأعراق العليا تقع على كاهلها مسؤولية اتجاه الأعراق الدنيا ، وأن عليها واجب تحضيرها وترقيتها ونقلها من حالة الهمجية إلى الحالة الحضارية (هاشم ، 2013 ، 178)، ولعلي أجزم هنا بأنه كان من الممكن مساعدة تلك الشعوب المتخلفة ، دون اللجوء إلى القوة العسكرية ، والاحتلال الهمجي ، واستغلال تلك الشعوب ، وسرقة ثرواتها ، والتنكيل بشعوبها . غير أننا من باب الإنصاف نجد بعض الفلاسفة والمفكرين الغربيين كانوا ضد الاستعمار ، بل ودعوا إلى مجابهته ، كما هو الحال مع جان جاك روسو الذي يعبر وبكل صراحة عن كينونة ومركزية الإنسان وقدسية ذاته من خلال اعتباره كائن سامي ومتميز ، ومن المشين أن نعتبره أقل من ذلك ، أو نسفه مكانته ، بل ويذهب روسو إلى أبعد من ذلك ، من خلال الدعوة إلى مشروعية مقاومة المستعمر وبكل السُبل ، فيقول: "لو كنت زعيماً لأحد شعوب أفريقيا السوداء ، لنصبت مشنقة على الحدود وعلقت عليها أول أوروبي يتجرأ على دخول البلاد" (هاشم، 178)، ولأن التنوير راج وانتشر ، فقد بقي صامداً أبداً ، ولازالت مشروعيته لم تفقد بريقها ، لأنه ليس له زمان ولا مكان .

خامساً : خصائص الفكر التنويري:

يتسم التنوير بمجموعة من الخصائص يؤسس عليها مشروعه والتي نستطيع حصرها في ثلاثة خصائص تتمثل في الاستقلالية ، والغائية الإنسانية لأفعالنا، والكونية (تودوروف، 2007 ،97) فالاستقلالية هي جوهر الفكر وبدون أن تكون ملك نفسك أنت وأفكارك فلا طائل منكما، والإنسانية إذا لم تكن حاضرة في كل لحظاتنا فإن الأنوار لم تضئ الدرب ، وإذا كانت أفكارنا لا تتجاوز أفواهنا وأن إنجازاتنا لا تغادر حدود أقاليمنا ، فإن بقية الكون سيكون مظلماً، ومن أهم الخصائص المتعلقة بالفكر التنويري ما يلي:.

أ – الاستقلالية: وهي عدم الارتهان ، ولا التقييد ، إلا وفق ما يقتضيه العقل وفق أدواته ووسائل إدراكاته ، في حين نجد أنها عند كانط لا تختلف عنه فهي" استقلال الإرادة بمعنى يجب على الفرد تنظيم سلوكه وفقاً لقانون كلي يفرضه على نفسه بإرادته العاقلة ، وبمعزل عن الدوافع الحسية والنفعية " (صليبيا ،74)، أي لا نذعن إلا لسلطاننا الداخلي الذي يقوده العقل، فلا مكان للأوصياء، ولا للعرف والتقاليد، إنه تحرر من كل السلطات التي عرفها تاريخ الإنسان وظلت تتحكم فيه ، تارة تحت ستار العرف ، وأخرى وفق سلطان الدين، ويعبر روسو عن ذلك باعتقاده أن المواطن الصالح هو الذي يعرف كيف يتصرف وفق حكمه الذاتي على الأشياء، فلقد أصبح الإنسان الفرد هو بذاته من يصنع قيمه وأمجاده وتاريخه ، بما يوحيه عليه عقله، وفي ذلك يرى منتسكيو: أن كل إنسان يتمتع بروح حرة ينبغي أن يحكم نفسه بنفسه، وهذه الروح وهِبت عقلاً يدرك كُنّه العالم من حوله ، لذلك فإن العقل يتسم بالمنطقية وذو حاسة أخلاقية متعالية أيضاً ، ما يعني إعادة تشكيل العالم من جديد وفق مفاهيم تخرج عن تحكم أي سلطة كانت ، وهذا ما جعل بعض الفلاسفة يبتدع مفهوماً جديداً للدين، والذي اصطلح عليه فولتير(دين العقل أو الطبيعة)، تمرداً على دين الكنيسة ، الذي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من حياة الإنسان والمجتمع ، فيعد مفهوم الاستقلالية الفاتح لأبواب العالم المؤصدة في وجه العقل باسم العيب والحرام والقدسية ، وبمعنى أدق حدث تمرد جعل العقل يتجرد من كل القيود ، ومع ذلك فالاستقلالية لا تعني التجاهل المطلق للغير، والاكتفاء الذاتي (تودوروف،45ـ 49)، بل لا بد من التفاعل مع الآخرين لإنتاج أفكار وقيم ناضجة وأقل سلبية ، وتكون تلك الأفكار أكثر إيجابية.

ب – الغائية في أفعالنا، لفظ الغائي نسبة إلى الغاية ، لذلك فالعلة الغائية هي العلة التي من أجلها وجد الشيء ، مثل علة تعلم العلوم التي هي تثقيف العقل ، وتحكم الإنسان وسيطرته على الطبيعة ، وهي علة متأخرة في الوجود عن الوسيلة ومتقدمة عليها في التصور(صليبيا، 122). والقصد هنا بالغائية في أفعالنا ، أن الدين مارس أسلوب توجيه غايتنا إلى السماء حيث يكون الله، الذي هو منتهى الوجود والسر الأعظم ، وعلة الوجود هي أن نسير على هدى أنواره التي وهبها واختص بها الصفوة من خلقه ، والتنوير بحسب منظور العقل الأوروبي جاء لكي يصحح تلك الغاية ، بحيث يعيد توجيه أنظارنا إلى الأرض حيث كل شيء ، ويصبح الإنسان هو العامل المركزي، لأن الأخر تم تجاوزه وفق التنويريين الأوروبيين ، ليقولوا "لم يعد بإمكاننا الاستنجاد بالسماء لتساعدنا على الحكم بأن هذه الأفعال حسنة والأخرى سيئة ، ولم يبق أمامنا سوى الاكتفاء بمعطيات الواقع على الأرض ، أي أنه ينبغي علينا الانتقال من غائية بعيدة (الله) إلى غائية أقرب هي في عرف الأنوار، البشرية ذاتها" (تودوروف، 96) وبمعنى أخر فإن الإنسان قد أرتقى إلى أبعد من الإخلاص كهدف أسمى في حياته، وهنا تبرز الدعوة الصريحة إلى توجيه كل الطاقات الإنسانية إلى الإبداع لأجل الإنسان ورفاهية حياته ، انطلاقاً من مبدأ أن بلوغ السعادة ، صناعة إنسانية لا دخل لأي سلطان في توجيهها، فالإنسان يرسم ملامح حياته ويحدد صفة العلاقات التي تنظمها في ظل منظومة من القيم التي يتعارفون عليها ، ويمنحونها درجة من

القدسية التي ينسجها العقل كالحرية والمساواة والعدالة ، فالغاية هنا هي تقدم العلم والقيم لمصلحة الإنسانية، ولتحقيق التنمية في شتى مناحي الحياة ، فإن الرقي الأخلاقي لا بد من أن يواكب العمران ، وتحترم كل الفئات والأجناس من بني الإنسان ، وتنعم بحقوقها كاملة وغير منقوصة ، تلك هي غاية مشروع التنوير، أما الأخر وهو(الله) كما يسميه التنويرين الأوروبيين، فإن مسألة استبعاد نصوصه وتوجيهاته، ليس لقصور في ذات الخطاب، وإنما لأن المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية كلاهما، وبتوافق يستخدمان النصوص الدينية لإخضاع الفرد لصالحهما ، وهذا ما حذا بأهل التنوير إلى الاعتماد على العقل الذي هو ذاته هبة ربانية للإنسان ، فإخراج النص المقدس من هذه الوجهة هو لمصلحة الإنسان الذي جاء النص أصلاً لإصلاح واقعه .

ج – الكونية: يُعد مصطلح الكونية من مصطلحات "النظام العالمي الجديد والمقصود به عدم شجب أي نسق فلسفي بل محاولة اقتناص فكرته المحورية للإفادة منها في تأسيس رؤية كونية لا تقبل الغلق ، ولا تنزلق إلى الدوجماطيقية، وإنما تظل مفتوحة وناقدة لذاتها، وغاياتها تأسيس وعي كوني يزيل اغتراب الإنسان في هذا الكون" (وهبة، 2007 ،25) فالإنسان هو الإنسان في أمريكا أو في موريتانيا، ولذا وجب أن يكون لكلاهما نفس المفهوم ، ولاستحقاقاتهما ومتطلباتهما الدلالات ذاتها ، باعتبار أن التنوير هو أفكار أبدعها إنسان لمصلحة جماعته أو دولته، فهي كذلك صالحة للآخرين من بني الإنسان ، وممكنة التحقق لهم ، مادام العقل هو أداة الإنسانية في التفكير والتقييم، ولذلك نجد أن مفكري التنوير من أمثال منتسكيو قد اهتموا بموضوع الرق كظاهرة غير إنسانية يمارسها الأغنياء على الفقراء، والأقوياء اتجاه الضعفاء ، وقد عبر منتسكيو عن ذلك بأن الرق يتعارض مع الحق المدني كتعارضه مع الحق الطبيعي(تودوروف ، 111) ، أي أن المدنية يجب ألا تتعارض مع الطبيعة ، والتي تجعل من كل الناس سواسية . وفي هذا المقام يُضيف منتسكيو بشيء من الوضوح إلى ما سبق بالقول: "أنا إنسان بالضرورة ، ولست فرنسياً ، إلا بحكم الصدفة" (تودوروف ، 112).

أي بمعنى أن هوية الإنسان ليست سبب استعباده ، وإنما انحطاط أخلاق الأخر وقيمه كلاهما السبب في انتشار الرق ، وممارسة الاستعباد ، على مستوى الفرد أو الجماعة . ومن هنا برز مصطلح الكونية كمفهوم عالمي تنويري يعني أن العمل الخيَر هو كل عمل يؤسس لقاعدة تسود العالم، فالتنوير يهدف لتوطين هذه القاعدة كي تعم أنوار العقل لدى كل الشعوب كافة .

سادساً : التنوير والعقل (الأداة والضامن):

العقل هو الملكة البشرية العامة أو القدرة على السعي وراء الحقيقة وحل المشكلات، وهو يختلف عن الغريزة والخيال والإيمان في أن نتائجه جديرة بالثقة فكرياً، وهو عند النزعة العقلانية ضرورياً وكافياً للحصول على المعرفة، وهو الخاصية المميزة للكائنات البشرية (تدهوندرتش، 584) فالعقل يعد من أهم مرتكزات فكر التنوير، بل هو أداته الفاعلة ، وفي غيابه ، أو في عدم فاعليته يصبح الحال أكثر ظلماً ، وبالتالي فإن الإنسان خلق ومعه أدواته التي يطور بها حياته، وأهم هذه الأدوات هو ما يصطلح

عليه (بالعقل) ، والإنسانية منذ جماعاتها المتنقلة كانت تعتمد على العقل، وإن كانت صورته ومقوماته ليست بالتي هي عليه اليوم ، والحضارات المجيدة كان ديدنها العقل ، حيث يتعين على العقل أن يحكم العالم لأنه سيد العالم بحسب ما قال أنكساغوراس 428 ق م . فالفلسفة وعلوم الطبيعة وكذلك العلوم الإنسانية أساسها العقل، غير أن قيمة العقل لم تكن في كل هذه التجمعات الإنسانية والحضارات مقام اهتمام ونظر بالدرجة التي يجب أن تكون، وذلك له مبرراته، إلا أنه ومع الحضارة اليونانية ومن بعدها الإسلامية بدأت تبرز قيمته عندما دبت الاختلافات في ما هو معيار الأحكام على الظواهر والمواقف والأحوال. ومع انقضاء العصور الوسطى في أوروبا بدأ العقل يهيمن على كل شيء ، وأضحت العقلانية مذهب تبرز بصماته في كل شيء، وتمت عقلنة الأحداث، ليكون الحكم في كل أمر مرده للعقل (أشقرا، 2008، 88). في حين عجزت العقلانية القديمة في التوفيق بين العقل والحياة اليومية (وهبه، 1994 ، 18)، ولذا كانت العقلانية الحديثة جديرة بأن تقترن بالتنوير، باعتبارها استطاعت أن تربط العقل بالحياة اليومية، أي أن تفسر الأحداث بالعقل دون سواه، وهذا ما أدى إلى قول البعض بأن التنوير يعني العقل هو الأداة التي نحتكم إليها، أي أن الحكم على ما يصدر من الإنسان وما يظهر من الطبيعة، وما يحدث من مجريات في محيط الإنسان والكون فمرده إلى العقل أي لا نقبل تفسيراً إلا ما ينطق به العقل، الأمر الذي جعل العقل يصبح بالتالي الملجأ للمفكر السياسي ولرجل الدين وللفيلسوف الأخلاقي وللعالم الرياضي يثبت به نظرته المغايرة لما كان يقال عن الإنسان والدين والدولة والفلسفة، نظرة تقاوم التسلط ليس بموجب تناغمها مع المبادئ المنطقية، وإنما عملاً بالمضمون القيمي الإنساني الذي يحمي الإنسان الفرد والمجتمع من الظلم والاستبداد(غانم،2001، 9) وبالتالي فإن العقل سلاح الإنسان ومحاميه الأمين، وقاضيه العادل، ودفاعه المستميت في تمكينه من حقوقه المهدورة، واستعادتها بالبرهان والحجة، وهذا لا يعني أن العقلانية التنويرية هي عقلانية منطق ومبادئ مجردة فقط، كما يرام لأعداء التنوير الادعاء، وإنما هي عقلانية قيم تدعو للحرية والتسامح والمساواة والعدل، وأكثر من ذلك فإن العقل مصدر الهداية، وهو الوسيلة التي تساعد الناس على بلوغ مقصدهم ، فالعقل أساس للإصلاح والحماية من الفساد، فهو الذي يبين للناس كيف كانت تعمل الطبيعة في الماضي، وكيف يمكن أن تعمل في المستقبل، إذا ما كف الناس عن إعاقة عملها بمؤسساتهم وعاداتهم غير الطبيعية، فالعقل يمكنه أن يهدي الناس إلى القوانين الطبيعية التي انتهكوها بجهلهم ، فوضعوا التعريفات الجمركية، وفنون الملاحة والتنظيمات الاقتصادية لحماية تجارتهم وضمان أكبر نصيب من الثروة لبلدهم(برينتون، 2004، 128). وبذلك ننتهي إلى أن العقل هو الملكة والأداة الوحيدة التي يحتكم إليها الإنسان، ويجد في أحكامها ضالته، ويذعن إلى تصوراتها، وينقاد وفق توجيهاته وتؤسس له إطار محكم في حياته، ترسم له صورة علاقته بالمحيط.

سابعاً:. التنوير والدين:

من الإشكاليات ذات الحساسية المفرطة في أغلب المجتمعات الإنسانية ، وخاصة لدى المجتمعات ذات النزعات الدينية في المجتمعات العربية والغربية ، فإننا نجد أن هناك تساؤلات تطرح ، هل التنوير من الدين؟ ، وهل هو وسيلة للإيمان؟ ، أم أنه فكر متطرف ومعاند ، ومعادي للدين لا يحترم المشاعر ، ولا يؤمن بالشعائر؟ ، ولعلنا نلاحظ أننا كمسلمين أولاً ، وكعرب ثانياً قد تعاملنا مع المسارات الفكرية والفلسفية المستندة إلى العقل وجدلياته بصورة فجة ، تصل إلى درجة النفي والتكفير لما يصدر عن العقل باعتباره مصادم للنص . وهو دليل على أن المؤسسات الدينية توصد الأبواب أمام العقل ، ولا تسمح بوجود سلطان إلا للنص، وكذلك لا تقبل أي أطروحة تتكي على العقل . غير أن هذا السياق فيه من المبالغة في الاحتكام إلى النصوص ، متجاهلين أن العقل هو ذاته وسيلة لفهم النص، وكذلك ركيزة في القبول والإيمان بالعقائد، وأن النصوص ذاتها تخاطب العقل، ولا تقصيه. وبالتالي فالتنوير مفهوم لا ينكر النص، بل التنوير هو ذاته إيمان، وهنا نقصد به نور الإيمان الذي به نبصر، ونؤسس بناءً عليه لعلاقات إنسانية تحترم الأخر ولا تقصيه ، تؤدي الواجب ولا تنتقص منه ، تطالب بالحق ولا تبطله، ونعني هنا التنوير الذي يجمع بين نور العقل ونور الإيمان في وحدة واحدة (هاشم، 2007 ، 141)، فثمة فرق كبير بين ما تقول به النصوص الدينية وبين ما يفهمه اللاهوتيون ، فيقومون بتجريم النصوص ويتهمون العقل والعقلانيين بالكفر والالحاد ، و في هذا الإطار يرى مندلسون أنه إذا أسيئ استخدام التنوير فإنه سيؤدي إلى الانحدار الأخلاقي والعناد والكفر ، وبالتالي إلى الفساد في فهم ما هو التنوير القويم، ولذا فأي حكم صدر أو سيصدر حيال موقف التنوير من الدين يجب أن يخضع للدراسة والمراجعة والفحص التام، حتى لا يشوه مفهوم التنوير ويحمله ما ليس فيه ، وكذلك أن تصدر أحكام دينية على مقاس المتدينين ، وليس من روح النصوص الدينية التي لم يتفقوا حيالها يوماً ، ولكنهم استضعفوا الفلسفة فحملوها ما ليس فيها . ولتجاوز هذه المعضلة استحضر هنا قول لهابرماس ، مفاده أنه علينا أن ننقح مشروع التنوير أو نراجعه بشكل نقدي وصارم ، وهذا في نظري عين الصواب ، فبقدر ما تهجم رجال الدين على الفلسفة وتنويرها ، بقدر ما تصلب المتفلسفون على المؤسسة الدينية ، فكلاهما مجانب للصواب، فالتنوير يجب أن يقرب لا يغرب ، ويجب على التنويريين أن يوفقوا لا أن يفرقوا ، في عصر تتكالب فيه الطائفية ، وتُشحن العدوات ، وتتربص الأيديولوجيات بنظيراتها ، فالتنوير لا يعني الكفر ولا يعني الإيمان، التنوير يعني توليد إيمان جديد ينهض على أنقاض الإيمان القديم، ولو كان التنوير تهديماً لكل عقيدة أو دين لما نجح في تشكيل هذه الحضارة الحديثة التي نشاهدها بأم أعيننا (هاشم، 147)، وبما أن التنوير هو أنوار الحق ، فهو العطاء والبناء ، وهو حالة صعود وليس نزول ، وهو ارتقاء وثراء ، تقدم وحضارة .

الخاتمة:

من خلال ما سبق نصل إلى النتائج الآتية:.

1. التنوير ثقافة ، ثم أضحى كفلسفة ، لها وعليها ، والعقل سلطانها ، لكن قدسيته ليست إلزامية ولذلك تاريخ الإنسانية وعذاباته هو من أنتج التنوير الذي يمثل في أعمق دلالاته نسق من التفكير أسهم في إنجاز التقدم الحضاري ، وبالتالي يعد كل ما أنجزته الجماعات البشرية من تطور في المشهد العام للحياة هو تنوير .

2. يعد كل تنوير تبديد لمرحلة ظلم وظلام ،فلكل منا ظلامه وتنويره ، والاختلاف ومخالفة الأخرين لا يعد نقيصة ،لذلك علينا أن نتجاوز الرؤية الأحادية والحادة التي تحكم على التنوير من خلال رؤيته التي تعبر عن الروح السائدة في مجتمعات بعينها (الأوروبية) مثلاً ، ومع كل هذا نجد بأن هناك من رواد التنوير الأوروبي، من كان مشروعهم قائم على التسامح والتعاقد والاحتكام إلى القوانين والشرائع .

3. لكل حضارة تنويرها الذي يستمد أنواره من جوهر الفكر السائد (الدين أو العقل، أو كلاهما معاً. فالعقل وسيلة للفهم والاقناع ، والدين يخاطب العقلاء ، ويستثني من هو دونهم .

4. نحن غير ملزمين بسير على خطى كانط ، ولا مرغمين على تبني رؤيته ،فالعقل أداة للتنوير لا يمكن إنكارها ، أو تجاهلها، والتنوير كان وما زال شعاع العقل ، وما الرسالات السماوية والديانات بشتى أنواعها بضد أو خصم للعقل .

5. إن التنوير بدأ مع انتقال الإنسان من مرحلة المشاعية البهيمية إلى العقلانية والاستئناس وقيم الإنسانية ، ومن الترحال إلى الاستقرار ، ومن الجور ، إلى مجتمع الإيمان والإذعان ، والحق والواجب ، ومن القهر والتسلط ، إلى المدنية والديمقراطية ، ، بل العقل هو وجهتها ، وهو أداتها في فهم وبيان مرادها ، وأي محاولة لنسف العقل أو تسفيهه هي ضرب من الجنون ، وأي محاولة لنسف النص أو تجاوزه ، أو القفز على فحواه هو ابتذال وسفاهة . وعليه فإن التنوير فلسفة ، أو مشروع للنهوض بالإنسان .

المصادر والمراجع :

1–القرآن الكريم.

2–الكتاب المقدس(الإنجيل)العهد الجديد، يوحنا، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت، لبنان.

3–ابن منظور(1995) ، لسان العرب، تقديم أمين محمد عبد الوهاب وآخرون، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ج14، ط1.

4–أبو الخير، محمد(2008) ، التنوير قضايا وشخصيات ، الدار المصرية ، القاهرة، مصر، ط1.

5–أشقرا، عثمان(2008)، موجز فكر التنوير، دار بترا للنشر والتوزيع ، ، ط1.

6–أوترام ،دورنيدا(2008)، التنوير، ترجمة، ماجد موريس ابراهيم ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان، ط1.

7–إيف بوروبير، بيار(2008)، أوربا التنوير، ترجمة محمد مقلد، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط1.

8–البعلبكي، منير(1981)، موسوعة المورد ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1.
9–الحيدري ، إبراهيم(2009)، ما هو التنوير، صحيفة إيلاف الإلكترونية ، الرياض ، السعودية .
10–الحفني، عبد المنعم(1998)،موسوعة الفلسفة والفلاسفة، مكتبة الشرق، الدار البيضاء، ط2.
11–برقاوي، أحمد(1996)، مقدمة في التنوير، منشورات دار معد للطباعة والنشر، سوريا، ط1.
12–برينتون، كرين(2004)، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1.
13–بغوره ، الزواوي(2009) ، ما بعد الحداثة والتنوير، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1.
14–تدهوندرتش ، دليل أكسفورد للفلسفة، ترجمة ، نجيب الحصادي، المكب الوطني للبحث والتطوير، طرابلس ، الجماهيرية، ط1.
15–تزفيتان،تودوروف(2007)، روح الأنوار، ترجمة، حافظ قويعة، دار محمد علي للنشر، صفاقس، تونس، ط1.
16–حرب ، حسن(1987)، ترجمة مقال (ما هي الأنوار . كانط) مجلة الفكر العربي ، العدد 48.
17–حنفي، حسن(2001) . نحو تنوير عربي جديد، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، مجلد 29، العدد 3، مارس.
18–صالح ،هاشم(2013)، الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ ، دار الساقي، بيروت ، ط1.
19–صالح ، هاشم(2007) ، مدخل إلى التنوير الأوروبي ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان.
20–صليبا ، جميل ، المعجم الفلسفي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط1.
21–عمارة، محمد(2000) ، فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين، جمعية المركز العالمي للتوثيق والدراسات والتربية الإسلامية ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ، ط1 .
22–عنان، أحمد: جدلية الفكر، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1.
23–ليسنج(2006) ، تربية الجنس البشري ، ترجمة حسن حنفي ، دار التنوير للطباعة ، بيروت.
24–مؤنس، حسين(1998)، الحضارة، سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة ، الكويت.
25–هازار، بول(2004) ، الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر (من منتسكيو إلى ليسنج)، ترجمة ، محمد غلاب، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، سوريا، ، مجلد 2.
26–هوركهايمر، ماركس. أدورنو، ثيودورف ، جدل التنوير، ترجمة ، جورج كتوره، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان، ط1.
27–وهبه ، مراد(2007)، المعجم الفلسفي، دار قباء للطباعة والنشر وتوزيع، القاهرة.
28–وهبة، مراد(1994) ، مدخل إلى التنوير، دار العالم الثالث، مصر، دار النهج الجديد، الكويت، ط1.
29–مجلة عالم الفكر (2001)، العدد3 ، المجلد 29، يناير– مارس.